المشير شوكت باشا

لما نُقلت الحكومة العثمانية من النوع الاستبدادي الى النوع الدستوري حمد العثمانيون مرامهم وأُعجبت بهم دول الارض لان انقلاباً مثل هذا قلما يحدث من غير حرب عوان وسفك دماء كثيرة . ولكن ابى الدهر ان يديم الصفاء للعثمانيين فوقعت الردَّة في الاستانة وحدثت مذابح اطنه وثارت حرب الروملي وفقدنا جانباً كبيراً من الولايات العثمانية والوفاً من الجيش العثماني وعدداً غير قليل من ضباطه وقوادهِ . وكانت ثالثة الاثافي ان اغتيل اثنان من حماة الدستور نيازي وشوكت . اما نيازي فسيرتهُ مبسوطة بالاسهاب في الكتاب الذي الفهُ وتُرجم الى العربية وهو بين ايدي القراء . واما شوكت فقد وصفهُ كاتب انكليزي اسمهُ فرنسيس مكلا في الكتاب الذي شرح فيهِ سقوط عبد الحميد وخلعهُ في العام الماضي . وقد رأينا ان نعيد الآن بعض ما جاء فيهِ عن شوكت باشا ونشفعهُ باهم حوادث حياتهِ الى ان نُتل غيلةً في ١١ من شهر يونيو هذا

شبه المستر مكلاً شوكت باشا بكرومول الذي قلب الحكومة الانكليزية منذ ٢٦٠ سنة وشكر جمعية الاتحاد والترقي لانها عرفت قيمة هذا القائد العظيم وقدرتهُ قدرهُ حينما كان اسمهُ غير معروف . وقال ان كل رجال تركيا الفتاة مجمعون على انهُ لو لم يسرع بالفيلق الثالث الى الاستانة لاستردَّ عبد الحميد سلطتهُ الاولى . وأورد قول ابي الضياء توفيق وهو انهُ لو تأخرت سلانيك مهد الحرية عن المبادرة لقمع الفتنة لقضي على الحكومة الدستورية . ولم يكن اسم محمود شوكت باشا معروفاً ولكنهُ يزهن على انهُ رجل فعَّال وانهُ من امهر قواد الجيش ولا يخشى من ان يتحمَّل كل مسؤولية . والذي انقذ الدستور من الالغاء هو سرعة اجتماع الجيش وزحفهِ على الاستانة وروح الغيرة والبسالة التي بثها القائد العام في صدور رجالهِ . وهذا رأي كل الثقات في علم الحرب من الاوربيين

ومن رأي المستر مكلا انهُ لو لم يزحف شوكت باشا بنفسهِ لانقاذ الاستانة والدستور بل ارسل بعض قوادهِ لوقعت المخافة بينهم وعجزوا عن ادراك الغاية التي ساروا لاجلها وكذلك لو لم يأتِ هو بالسرعة التي اتى بها لالتفَّ كبار رجال الحكومة حول عبد الحميد وعادوا طوع يمينهِ كما كانوا قبل اعلان الدستور . ثم ذكر ترجمة شوكت باشا وهذه خلاصتها

ولد سنة ١٨٥٧ وابوهُ كتخدا زاده سليمان بك والي البصرة جاء الاستانة سنة ١٨٧٠ ودخل المدرسة الابتدائية في اثلامه طاش باسكدار ثم دخل المدرسة الحربية في قله لي

وانتقل منها سنة ١٨٧٨ الى المدرسة الحربية العليا واتمّ دروسهُ فيها وخرج منها سنة ١٨٨٢ برتبة يوزباشي اركان حرب وكان الاول في صفهِ (فرقتهِ) وبعد قليل أُرسل الى كريت ليرافق الجيش الذي كان يراد ارسالهُ الى مصر لقمع الثورة العرابية وبقي سنة في كريت وعاد منها الى الاستانة حينما عدلت الدولة العلية عن ارسال جنودها الى مصر

وبعد قليل جُعل استاذاً في المدرسة الحربية العليا لتعليم علم الجبر والمقابلة ثم لتعليم علم اطلاق المدافع . وعُين باشارة الجنرال فون درغلتز من اللجنة الموكول اليها استلام ما ابتاعتهُ الحكومة من بنادق موزر بعد ان يراقب عملها في معامل المانيا . فذهب الى المانيا لهذه الغاية واقام فيها وفي فرنسا تسع سنوات قضى الحكومة العثمانية في خلالها اشغالاً كثيرة ناطتها به تتعلق بابتياع المدافع والبنادق والبارود وعكف على درس المسائل الحربية من باب عملي . وعاد من المانيا سنة ١٨٩٦ لانحراف صحتهِ ورقي حينئذٍ الى رتبة امير لواء وكان الدرس الكثير قد اضعف اعصابهُ فنعهُ الاطباء عن كل عمل يقتضي تشغيل العقل ولذلك لم يشترك في حرب اليونان

وسنة ١٩٠١ أُمر بمد سلك التلغراف بين مكة والمدينة فأُرسل الى الحجاز في السفينة العثمانية مرودة وكان فيها ستمئة من المغضوب عليهم وأُمر ان يودعهم في السجون الحصينة في بلاد العرب فأثّر فيهِ منظر اولئك الرجال وحديثهم تأثيراً عميقاً وكان احترامهُ للسلطان قد ضعف بما شاهدهُ في فرنسا والمانيا ثم رأى من تعصب رجال الدين ومقاومة شريف مكة ووالي الحجاز ما منعهُ من مد السلك التلغرافي فعاد الى الاستانة وهو غير ناسٍ ما شاهد في السفينة وما لقي في الحجاز

وعين سنة ١٩٠٦ والياً لقونيه وبقي فيهِ هذا المنصب حتى اغسطس سنة ١٩٠٨ وقيل عنهُ حينئذٍ انهُ شجاع ولكنهُ لا يصلح للولاية لانهُ حليم كأن الحلم والولاية لا يجتمعان . وكان يرى سوء ادارة البلاد ولكنهُ لا يرى علاجاً لهُ فتولاهُ اليأس . وكانت لذتهُ الكبرى في مقابلة الاوربيين ومحادثتهم في المواضيع التي كانت الحادثة فيها مباحة وهي العلوم والآداب والمسائل الحربية

ولما استدعي حلمي باشا من سلانيك ليتولى نظارة الداخلية جُعل شوكت باشا مفتشاً عاماً في مكدونية وبقي في منصبهِ في الجيش فتمرّن على الادارة تمرّناً يؤهلهُ للوزارة يوماً ما

وكان من رجال تركيا الفتاة فلما نشرت راية الحرية ليلة ٢٣ يوليو سنة ١٩٠٨ كان اول من حيّاها في اسكوب واقتدى بهِ كل وجهاء البلاد . وبلغ خبر اسكوب سلانيك فاقتدت

بها . واستدعته الحكومة الجديدة في اغسطس لقيادة الفيلق الثالث في سلانيك وبقي من ذلك الحين الى شهر ابريل وهمهُ الاكبر اصلاح شؤون ذلك الفيلق وبث الحمية والغيرة الوطنية في نفوس رجاله وضباطه وهذا الذي ساعدهُ على دخول الاستانة بعد ذلك وتخليص الحكومة الدستورية من الزوال

وقد حادث المؤلف شوكت باشا في كيفية زحفه على الاستانة فقال لهُ ما ترجمتهُ

« اني لم اسمع عن وقوع الفتنة في استانبول الاَّ في ١٤ ابريل فارسلت تلغرافاً الى الاستانة احتجُّ فيهِ باسم الفيلق الثالث وارسلت التلغرافات اللازمة الى الاورط التي عزمت ان ازحف بها على العاصمة . وبلغني في المساء ان الضباط الذين تحت امري اجتمعوا في النادي العسكري فذهبت اليهِ لكي اخبرهم بما عوَّلت عليهِ ولكي انصحهم حتى يلزموا السكينة وقلت لهم ان التلغرافات التي وردت من الاستانة تدلُّ على ان الاستبداد قد عاد الى نصابهِ فاذا كان الامر كذلك فالحكومة لم تعد شرعية في نظري ولقد قلت للدوي الامر في العاصمة انهُ اذا صحت الاخبار التي بلغتني فالفيلق الثالث يزحف على الاستانة بكل قوتهِ حالاً لكي يزيل العار عن شرفنا العسكري الذي لطختهُ يد فتنة ١٣ ابريل ولكي يعيد الدستور العثماني معها كانفنا ذلك . ولقد اعددت كل المعدات اللازمة للزحف وانا مستعد ان أُنفق وأُنفَق في هذا السبيل واتوقع منكم الطاعة التامَّة لكي نفوز بالنجاح . ولما قلت ذلك اقسم لي الضباط كلهم ان يطيعوني طاعة تامَّة . وبالها من ساعة لا يزول ذكرها من نفوسنا »

فسألتهُ هل كان كلامهُ للضباط حينئذٍ اول كلام قيل في هذا الموضوع فقال نعم وطبع كلامي حالاً ونشر في البلاد كلها

وقد ذكرت الجرائد خطبة شوكت باشا هذه وقالت انها فريدة في بابها اثَّرت في السامعين تأثيراً عميقاً فصفقوا لها تصفيقاً حادًّا ولا غرابة في ذلك لانها كانت بمثابة اعلان الحرب على عبد الحميد بل على مَن هو اضر بالبلاد من عبد الحميد اي على الذين يحاولون ان يقوِّضوا اركان الدستور باسم الشريعة . وقد كان كلام شوكت باشا ورجاله صريحاً في هذا المعنى فقد قال الجنرال حسين حسني باشا قائد مقدمة الجيش المكدوني في المنشور الذي نشرهُ على اهل الاستانة « ان غرض الجيش الذي زحف على الاستانة هو ان يثبت لهم انهُ لا يعرف شريعة فوق الدستور ولا سيادة فوقهُ »

ولم يكد شوكت باشا يهدِّد الاستانة بالزحف عليها حتى انتشر خبر تهديدهِ بواسطة التلغراف في السلطنة كلها . ونشرت جريدة نير حقيقت تلغرافاً فوقع في الاستانة كالصاعقة

والحال جعل يمدُّ جيشهُ بالزحف . وقالت جريدة التيمس حينئذٍ انهُ يتعذَّر عليهِ الزحف في اقل من ثلاثة اسابيع وانهُ اذا بلغ الاستانة فادهم باشا وقائم باشا لا يدعان جنود سلانيك تصل الى حدود الاستانة . ولكن شوكت باشا وصل في ثلاثة ايام بدل ثلاثة اسابيع ولما وصل لم يجسر ادهم باشا ولا قائم باشا ان يصداهُ . ويتعذَّر وصف هذا العمل الخارق الذي عملهُ شوكت باشا الأ على كبار رجال الحرب الخبيرين بالحركات الحربية . والظاهر انهُ لم ينتظر اقرار رجالهِ على الزحف بل ارسل بعض الجنود امامهُ حالما بلغهُ خبر الفتنة

وقد قال المؤلف في هذا الصدد ما ترجمتهُ « لما كنت على اهبة الزحف على الاستانة تقدَّم اليَّ عشرة آلاف من البلغار وثلاثة آلاف من اليونان متطوعين ولكني خفت ان استخدمهم كلهم فيحدثوا في الاستانة حدثاً لانهم لم يألفوا التنظيم العسكري واكتفيت بثلاثة آلاف منهم ففرقتهم بين الاورط العثمانية المختلفة »

قال المؤلف واذا ذكرنا فضل شوكت باشا في انقاذ الحكومة الدستورية لا ننسى اخوانهُ الضباط وكل اعضاء جمعية الاتحاد والترقي وكل رجال الملكية في سلانيك الذين تطوعوا في الجيش لانقاذ البلاد ولا سيما بطلي الدستور انور وتيازي اللذين كانا في طليعة رافعي راية العصيان على الحكومة الحميدية السابقة . انتهى كلام المستر مكلا باختصار كثير

ولما سقطت وزارة حلمي باشا في اول سنة ١٩١ واستلم الصدارة حقي باشا جعل شوكت باشا ناظراً للحربية . ثم لما سقطت وزارة حقي باشا في بداءة الحرب الطرابلسية اعطيت الصدارة العظمى لسعيد باشا فألف الوزارة في ٤ اكتوبر سنة ١٩١١ وبقي شوكت باشا ناظراً للحربية لكنهُ استعفى في ٩ يوليو الماضي (١٩١٢) وتبعهُ الصدر الاعظم بعد اسبوع واعطيت الصدارة لكامل باشا فاعطى نظارة الحربية لناظم باشا الذي قُتل غيلة في اوائل هذه السنة واضطرَّ كامل باشا حينئذٍ ان يستعفي من منصبهِ واعطيت الصدارة لشوكت باشا فالف الوزارة في ٢٤ يناير الماضي واستلم هو نظارة الحربية مع الصدارة العظمى وبقي فيها الى ان اغتيل يوم الاربعاء من الحادي عشر من هذا الشهر فانهُ كان راكباً اوتوموبيلهُ وذاهباً الى الباب العالي ومعهُ ياورهُ البحري ابرهيم بك فدنا منهُ اوتوموبيل آخر ووثب منهُ رجال اطلقوا مسدساتهم عليهِ وعلى ياورهِ فقتل الياور في الحال واما هو فاصيب في مقتل وتوفي بعد اصابتهِ بنصف ساعة . وقبل ان فاضت روحهُ صاح قائلاً واحسرتاه على الامة . ولقد خسرت تركيا باغتياله خسارة لا تقدَّر لانهُ كان من اعظم قوادها المتفانين في خدمتها وسيخلد اسمهُ بين اسماء شهداء الحرية